الأبوة التربوية ودورها في بناء شخصية المتعلم

د. الحسن الساسيوي[1]

أعتقد أن الوقت قد حان لإعادة النظر في طبيعة العلاقة بين المتعلم والمدرسة. ذلك أن كل المؤشرات والمعطيات والملاحظات، تبين أن هذه المسألة أصبحت اليوم أكثر إلحاحا، في وقت تشهد فيه حقيبة المفاهيم التربوية اتساعا وتشعبا وتعمقا، خاصة بعد اقتناع الجميع، بوجوب انفتاح المدرسة على الواقع بكل مكوناته وتجلياته، لتكون عنصرا فاعلا فيه، مع توفير الشروط المؤدية إلى ذلك. ورغم ما يمكن تسجيله من حرص هذه المفاهيم على استيعاب مختلف جوانب شخصية المتعلم، وتفاوتها في ذلك، فإننا نلاحظ اختلالا بينا في التوازن، بين ما هو مادي وما هو معنوي، إذ يبدو أن الشروط المادية، تستأثر باهتمام الباحثين التربويين، أكثر من الشروط المعنوية، في حين نجد أن جوانب عدة من الواقع المعنوي للمتعلم، في حاجة ماسة إلى مزيد من الأبحاث والدراسات الجادة، التي تستمد معطياتها من طبيعة وخصائص المتعلم، في علاقة ذلك بالقيم الدينية والوطنية والإنسانية، التي تسعى إلى بناء شخصية متوازنة، قوامها المرونة والتسامح والمحبة وحب الخير للناس جميعا، والتعاون والتضحية والإخلاص، وعدم الشعور بالنقص، والانفتاح والتواضع والمبادرة الإيجابية، وحسن تدبير الزمن، والصدق في القول والعمل. ولعل أبرز جانب في هذا الباب، هو الذي أسميه " الأبوة التربوية " التي أعتبرها دعامة قوية، وأساسا متينا يعول عليه في الحفاظ على تماسك المنظومة التربوية، وتمكينها من تحقيق الأهداف والكفايات المنتظرة منها.

والأبوة التربوية - كما نراها – سلوك تربوي مكتسب، يتجسد في الكيفية التي يتصرف بها كل من وكل إليه أمر التعامل مع المتعلمين والمتعلمات داخل فضاء المؤسسة. وتشكل المعاملة الحسنة العمود الفقري للأبوة التربوية. وتتجلى هذه المعاملة في الرفق والمرونة والإنصات، والانشراح والاحترام والصبر والتوجيه السليم ... وهي ضوابط ومقومات لا يمكن أن تتجسد إلا في شخصية متوازنة، تعي جيدا أهمية رسالتها التربوية النبيلة، ومتشبثة بالقيم، وحريصة على تثبيتها وتنميتها وصيانتها في شخصية المتعلم، ومساعدته على التمسك بها، وتجسيدها في حياته العامة والخاصة، والدفاع عنها في المواقف المناسبة. وهذا يتوقف على مدى قدرته

1- أستاذ باحث بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مدينة القنيطرة.

على التسرب إلى نفسية وعقلية المتعلم، وجعله يشعر ويقتنع بأنه يعيش في فضاء لا يقل من حيث المسؤولية والعطف والرفق والتفهم، عما هو عليه الوضع داخل الأسرة. لكن هذا لا يعني التخلي عن الصرامة الهادفة،التي تشكل حاجزا يحول دون حدوث مشاكل غير مرغوب فيها. والصرامة المقصودة هنا، هي تلك التي تيسر التواصل، وتحبب فضاء المؤسسة، وتجعل المتعلم يرجع كل تصرف اتجاهه إلى الرغبة في بناء شخصيته بناء إيجابيا، يجعله قادرا على التفاعل مع معطيات الحياة ومساراتها، وتحولاتها المتوقعة وغير المتوقعة، بكيفية سليمة ومناسبة، ودون أي أدنى شعور بالنقص أو الارتباك، الأمر الذي يؤدي إلى بناء وتوطيد أركان الثقة المتبادلة، إذ على هذه الثقة يعول في جعل المتعلم يتخلص من الانفعالات والهواجس، وردود الأفعال السلبية. وبذلك يتم توفير طاقة مهمة،يمكن تصريفها في اتجاهات تخدم تعلمه.

وغير خاف على ذي بصيرة أن هذه القضية تتصل اتصالا مباشرا بالعنصر البشري، وهي تخص فئة معينة، هي هيئة رجال التربية باعتبارها الهيئة المؤتمنة على تربية أبنائنا. وأفرادها يتباينون من حيث طبيعة ومستوى تفاعلهم مع المتعلمين والمتعلمات. وإذا كان الأمر يهم كل من هو مسئول عن تدبير الشأن التربوي، فإننا نحصر القول في هذا المبحث من حيث المكان في فضاء المؤسسة، ومن حيث الزمن في جميع مراحل التعلم بما في ذلك التعليم العالي، ومن حيث العنصر البشري، في هيئة الإدارة وهيئة التدريس، باعتبار اتصالهما المباشر واليومي بالمتعلمين والمتعلمات، حيث يتخذ التفاعل والتواصل مسارات متنوعة ومتباينة. ولا شك أن المدرسين هم الفئة الأكثر قربا وتفاعلا معهم، وهم في ذلك يتفاوتون، فالمدة الزمنية التي يقضيها المدرس مع المتعلمين في الأسبوع،تختلف حسب الأسلاك،انطلاقا من التعليم الأولي والابتدائي. ويرى بعضهم أن المعلمين "هم » وكلاء المجتمع « إن صح هذا التعبير »ينشئون « التلاميذ صغارا حتى يتهيؤوا للانخراط في المجتمع كبارا،وأمر مثل هذا يقتضي كذلك وعيا بفلسفة المجتمع وبالاتجاهات والمقومات الأساسية كثقافة وبنية القيم فيه. "(1)

إن واقع الحال التربوي يفرض علينا استحضار مجموعة من المعطيات والضوابط،التي تشكل بناء متماسكا ومن ذلك، أن أفضل استثمار في زمننا هذا، هو الذي يكون في العنصر البشري،فقد تأكد بشكل قوي وجوب الاعتماد عليه في النهوض بالمجتمع وتنميته، والسير به في ركاب التقدم. وأنت إذا بحثت في الأسباب التي مكنت العديد من الدول، من الرقي واحتلال مراتب متقدمة في مختلف الميادين، ستجد أن هذا قد حصل بفعل الاهتمام بالعنصر البشري، وتيسير الظروف المناسبة لكي يتم التعلم في أجواء محفزة ومشجعة. لقد وُجِدت المؤسسة من أجل المتعلم، وهذا معطى يتعين استحضاره باستمرار،فالمدرسة ببنيتها التحتية، ومواردها البشرية، موضوعة رهن إشارته، والمسؤوليات في هذا الباب جسيمة. وهذه حقيقة وجب إدراكها والاقتناع

بها، والعمل بمستلزماتها. وعلى هذا الأساس فإن التنسيق بين جميع المعنيين بالتدبير الإداري والتربوي للمؤسسة، يعتبر مطلبا أساسيا وملحا في جميع الأحوال والمواقف. والتنسيق المحكم لا يسمح بوجود ثغرات أو تناقضات في التعامل مع التلميذ، كما أنه يمكن من منع حدوث العديد من المشاكل قبل وقوعها، أو على الأقل الحد من آثارها وأخطارها. " إن معظم الأطفال في المدرسة الابتدائية يمرون بمشكلات سلوكية، وبعض هذه المشكلات من النوع البسيط الذي يمكن السيطرة عليه بسهولة، وبعضها يحتاج إلى دراسة ومتابعة واقتراح الحلول المناسبة، أما تلاميذ المدرسة الإعدادية والثانوية فيتعرضون لمشكلات سلوكية أكثر تعقيدا، ويتطلب الأمر تضافر جهود كل من المعلم والإدارة والأخصائي النفسي في المدرسة للعمل على التغلب على هذه المشكلات، خاصة وأن المشكلات تؤثر سلبيا على ضبط النظام في الصف وتعمل على إعاقة عملية التعليم والتعلم، وكذلك يؤثر سلوك بعض التلاميذ من ذوي السلوك المضطرب على سلوك التلاميذ الآخرين، ويلجأون إلى تقليدهم وبالتالي تصبح المشكلة أكثر تعقيدا " (2)

ولا شك أن المتعلم أيا كان عمره، وأيا كان مستواه الدراسي، يشعر بل ويؤمن بأن له على المؤسسة التي يدرس بها حقوقا، وإن لم يكن ملما وواعيا بها جميعها. وهو ينتظر أن يعامل معاملة حسنة. ونؤكد هنا أن سوء معاملة المتعلم، تعد من ضمن الأسباب التي تؤدي إلى التعثر الدراسي، وفي هذا يقول أحد الباحثين: " تهيمن حالة من التوتر على الحالة النفسية للمتعلم، لأن نموه العادي قد تمت عرقلته بتصرفات المدرس السلطوي، الذي لا يبالي بشخصيته ولا يسمح له بالتعبير الحر عن حاجياته ... إن إهمال الجانب السيكولوجي للتلميذ من طرف المدرس، أمر تنجم عنه عدة آثار سلبية، ولعل أبرزها: الصراع الداخلي الذي يعيشه المتعلم بين ميله إلى الإفصاح عن رغباته وكبتها من طرف مدرسه "(3)

ومن المؤكد أن مرحلتي الطفولة والمراهقة، تشكلان ممرين مهمين وخطيرين وحاسمين في حياة الفرد ومستقبله. وكل مرحلة منهما تستوجب الإلمام بأصول وضوابط الخيارات المناسبة للتعامل مع المتعلمين والمتعلمات، والجهل بذلك تنتج عنه عواقب وخيمة، يصعب تدارك آثارها وتداعياتها. ومما يمكن التنبيه إليه في هذا الصدد، الحرص على اللياقة والمرونة والكياسة، في توجيه المتعلم ونصحه للتخلي عن سلوك غير مرغوب فيه، ذلك أنه " لكي يتقبل منا الآخر نصحنا لابد أن يشعر أننا جزء منه، وأننا جسد واحد وما دفعنا للنصح إلا الحرص عليه ومحبته، وأنه حتى مع ارتكابه الخطأ فهو جزء منا ونحن لا نرفضه، بل نرفض الخطأ الذي يرتكبه، ونوحي أيضا بأنه لو فكر فيه لرفضه، هذه الاستراتيجية في إيصال النصح للآخرين تتطلب منا أن ننسجم مع الطرف الآخر، ونجاريه في نبرة صوته وجلسته وحركاته، وجلوسه ووقوفه ، فالتواصل اللالفظي يعزز التواصل اللفظي ويدعمه، مما يجعله مؤثرا وفاعلا "(4)

إن الأسرة عندما ترسل أحد أبنائها إلى المدرسة، فإنها تنتظر منها أن توفر له الشروط المادية والمعنوية، التي تيسر له الانخراط الفعال في الفضاء التربوي، وإعداده للتفاعل مع متطلبات الحياة،إذ" تمتاز المدرسة بكونها فضاء للجميع بغض النظر عن جميع الفوارق البيئية والطبقية، فبدخولها يكون الطفل قد خرج من بوتقة الأسرة في شكلها الأبوي والأخوي الضيق إلى عالم فسيح، حيث يتوجب عليه أن يعيش ضمن زمرة اجتماعية، ويذوب فيها تحت سلطة نظام اجتماعي. فالمؤسسة التعليمية تعد من العوامل الأساسية التي تساعد على الانتقال من التمركز حول الذات والانعزال إلى التجمع والشعور بالتعاون والتضامن" (5)،مما يجعل الفرد يطل على الحياة من منظور أرحب وأوسع، ويحفزه على العمل والإنتاج والشعور بالمسئولية، وفي هذا تعديل للسلوك، وتحقيق للتوازن النفسي.

وهناك حقيقة لا بد من التأكيد عليها في هذا السياق، وهي أن الأسرة تمثل عنصرا مساعدا وقوة فاعلة، لا يمكن الاستهانة بها على مستوى فهم طبيعة وخصائص المتعلم. فهي تشكل المصدر الأول للتربية، وعليها فتح التلميذ عينيه، وبين أحضانها بدأت تتشكل شخصيته، وعلى هذا فالكثير من مفاتيح هذه الشخصية توجد بين يديها. كل هذا يجعل التنسيق معها أمرا ضروريا في كثير من المواقف، خاصة وأن التواصل أصبح اليوم ميسرا بفضل ما تقدمه تكنولوجيا الإعلام والاتصالات من إمكانات.

وجدير بالذكر أن المتعلمين والمتعلمات ليسوا سواء من حيث طبيعة وخصوصيات ومؤثرات الوسط، إذ يوجد تباين في هذا الصدد. فهناك اختلاف مثلا بين الوسطين القروي والحضري، والمحلي والجهوي. وعلى هذا فإنه من الضروري الإلمام بالمعطيات المحلية والجهوية، لأن هذا ييسر فهم المتعلم وتحقيق التواصل معه. ثم إن الذكور والإناث ليسوا سواء من حيث طبائعهم وخصائصهم، ولذلك فإن أساليب التعامل مع الطرفين، لابد أن تأخذ هذا التباين بعين الاعتبار، حفاظا لكل طرف على ضوابط وشروط التعامل المناسبة له، حتى لا يشعر بأي إحساس غير مرغوب فيه، مع الحرص الشديد على الإنصاف بينهما، فكل متعلم ينتظر أن يكون أستاذه أو غيره من المسئولين والمسئولات عن تدبير الشأن الإداري والتربوي داخل المؤسسة، بمنزلة أب أو أم له. ومن المفروض أن يعي كل طرف هذه الحقيقة، ويحرص على توفير الشروط المناسبة لهذه المسئولية، وأن يدرك أن الجودة باعتبارها مطلبا تربويا، تتطلب بناء شخصية المتعلم بناء متوازنا، بعيدا كل البعد عن أسباب التوتر، وعن كل ما يمكن أن يعوق السير الطبيعي لتعلمه. وعلى هذا فإن استعمال العنف بشقيه المعنوي والمادي، مثل الضرب والشتم والسخرية والتهكم والمقارنة بالغير ... لا يمكنه أن يحل المشاكل، فهو لا يزيد الأمور إلا تعقيدا، قد تصل إلى حد توقف التلميذ عن الدراسة.

ومن الفئات التي يجب الانتباه إليها،ذووا الحاجات الخاصة من المتعلمين والمتعلمات،فهذه الفئة تحتاج إلى معاملة تنسجم مع أوضاعها وأحوالها. وهذه المعاملة لها صيغ وضوابط، بينها أهل الاختصاص في أبحاثهم ودراساتهم، وفي مختلف الدورات التكوينية والندوات الوطنية والدولية التي استهدفت التعامل مع هذه الفئة، فالاطلاع على فحواها مفيد للغاية،لأنه من حقها أن تتعلم وتندمج في مختلف مجالات الحياة، ومن حقها أن تهيأ لها الأجواء المناسبة لطبيعتها، أجواء فيها مزيد من العطف والرفق بالنظر إلى المتعلمين الآخرين، ولكن دون جعلها تحس بالنقص. وهذا يبين أن مسئولية المؤسسات التعليمية في غاية الأهمية والخطورة، والوعي بهذه المسئولية في حاجة إلى إدراك عميق، يستوعب كل جوانب القضية، وينزلها المنزلة اللائقة بها، فيكون التصرف في مواجهة مختلف المواقف، خاضعا لضوابط معقولة، ومنسجمة مع روح التربية، التي تحافظ للإنسان على كرامته وأمنه.

لقد أشرنا سابقا إلى أن الأبوة التربوية سلوك مكتسب، ونحن لا نقصد فقط الاكتساب العادي الذي يتم بشكل تلقائي، وإنما الاكتساب الذي يخضع لضوابط ومعايير هادفة، وفق خطة تربوية محكمة الصياغة، يتم تنفيذها في سياقات مختلفة نذكر منها:

أولا: تكوين المدرسين الجدد: وتعتبر هذه المرحلة مناسبة أكثر من غيرها، لبلورة وتجسيد وتثبيت وتركيز مكونات وأوجه الأبوة التربوية، بفعل تعدد الفرص أمام المؤطرين والأساتذة المتدربين، للاحتكاك بكيفية مباشرة وعملية بأوجه وتجليات الأبوة التربوية نظريا وعمليا.فعلى المستوى النظري، توجد العديد من المقامات التي يمكن استغلالها في هذا المجال. وهذا يستلزم وضع خطة محكمة وغاية في الدقة والتركيز، تقوم برصد واستثمار المواقف التي تكون مناسبة للحديث عن الأبوة التربوية. أما المستوى العملي، فيشكل الأرضية التي تتيح رصد الأثر الإيجابي للتدريس باحترام مقتضيات الأبوة التربوية، إذ يجد الأستاذ المتدرب نفسه وجها لوجه أمام مجموعة من المتعلمين، الذين يتباينون من حيث قدراتهم العقلية والنفسية والحركية، الأمر الذي يفرض صيغا مختلفة ومتنوعة في التعامل معهم، يكون قوامها الرفق واللين وحسن التفهم. وهذه مقومات قد لا يدرك الأستاذ المتدرب قيمتها ومزاياها على الوجه المطلوب نظريا، غير أن الوضع يختلف عمليا، إذ النتيجة تظهر في الحين، فيحصل الاقتناع بجدوى هذا السلوك. وبتكرار التجارب والخبرات في هذا المجال، يتحول الأمر إلى سلوك مدمج في الفعل التربوي. وهذا مفيد جدا له، لأنه يساعده ويشجعه على حب المهنة، والعمل على تطوير أدائه وصقل قدراته.

ثانيا: التكوين الذاتي: إن من يعلم غيره مطالب بأن يجدد نفسه باستمرار، إن هو أراد القيام بوظيفته على الوجه المطلوب. وبالنسبة لموضوعنا هذا، فإنه يمكن الاستفادة من الدراسات والأبحاث، التي تقدم أفكارا وتصورات جادة ومفيدة، تمكن المدرسين والمدرسات من التعرف أكثر

على العناصر التي تتحكم في نفسية المتعلم وتوجه سلوكه،لأن التحكم فيها يعد شرطا أساسيا لإدراك قيمة وأهمية احترام مقومات الأبوة التربوية في العملية التعليمية. وليس المطلوب أن يتعامل المدرس مع ما يقرأ باعتباره تحصيلا حاصلا غير قابل للنقاش، بل إن الأمر يتطلب امتلاك حس نقدي قادر على انتقاء التوجيهات والآراء الصالحة، التي تراعي القيم ولا تتنافى مع مكوناتها، خاصة عندما يتعلق الأمر بدراسات أجنبية لا تعبر عن واقعنا وقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، فهذه تفرض غربلة دقيقة لما تقدمه من معطيات تخص سلوكيات المتعلم، وكيفية التعامل معها. ونشير هنا إلى أن شبكة الإنترنيت تعد أحد المصادر الهامة، على مستوى تزويد المدرس بجملة من الآراء والأفكار المستمدة من واقع المتعلم، من حيث طبيعته وخصائصه، وصيغ التعامل معه، وفق تصورات حديثة، وأساليب واقعية، يمكن الاستفادة منها وتطويعها لخدمة منظومتنا التربوية، وجعلها قادرة على احتواء المتعلمين والمتعلمات.

ثالثا: التكوين المستمر: وهو مطلب تربوي لا يمكن الاستغناء عنه، شريطة مراعاته لضوابط ومقومات التطوير المهني، يقول بعض الباحثين:" يفضل معظم الأفراد ألا يتعاملوا مع طبيب يفحص الحالات المرضية بطريقة الفحص نفسها التي كانت مستخدمة منذ ثلاثين عاما دون أدنى تغيير يذكر. وبالطبع، يعرف الأطباء أنهم يحتاجون إلى الانتباه إلى أي اكتشافات طبية جديدة والقيام بالمزاولة العملية منذ خطواتهم الأولى إلى أن يصلوا إلى مرحلة التقاعد. وبالطريقة نفسها، تعتبر عملية تأهيل المدرسين الخطوة الأولى في مهنة تتطلب تطورا مهنيا مستمرا. وهناك مجموعة أسباب تتعلق بالحاجة لمثل ذلك النوع من التطور".(6). وإذا كان الهدف من التكوين المستمر، يتمثل في تمكين المدرسين والمدرسات من التصورات والتقنيات والوسائل والأساليب الجديدة، التي لا يتوقف البحث التربوي عن تناولها بالتحليل والمناقشة، وإبداء الرأي واقتراح صيغ التطبيق، فإننا نرى أن مقتضيات الأبوة التربوية تستحق أن يلتفت إليها بعناية حين صياغة محاور التكوين، وذلك بإدراج كل ما يمكن أن يكون مفيدا مما له صلة بالموضوع، قصد تدارسه وتقاسم الآراء والخبرات بين المدرسين والمدرسات. ومن المفيد جدا أن يتعودوا على استغلال فترات التكوين المستمر وغيرها من اللقاءات التربوية، لعرض تجاربهم وخبراتهم. وأعتقد أن أفضل طريقة للتعامل مع الموضوع، هي الانطلاق من دارسة حالات معينة، يتم انتقاؤها من بين العديد من الحالات التي يصادفونها داخل المؤسسات، وذلك من أجل تحديد كيفية احتوائها والتعامل معها، والخروج بنتائج واقتراحات عملية، يسهل تطبيقها في المواقف المماثلة.

إن القضية التي بين أيدينا ترتبط ارتباطا عضويا بتقنيات التواصل، التي يبدوا أنها تشكل اليوم واحدة من أهم القضايا، التي تتوجه إليها أقلام الباحثين والمهتمين في مجالات عدة، ومنها المجال التربوي. وعلى هذا الأساس، فإن إدراجها ومعالجتها ضمن محاور تقنيات التواصل، خلال

دورات التكوين المستمر، يعد من الأهمية بمكان. ذلك أن التواصل الذي لا يأخذ بعين الاعتبار الحالة النفسية للمتعلم، التي تتطلب الاحترام والمعاملة برفق، محكوم عليه بالفشل، لأنه يكون قد فقد أحد ركائزه الأساسية. وقد يبدو للمدرس مثلا أن المتعلم يتجاوب معه، وقد يكون هذا صحيحا، لكن عليه أن يتأكد أن التجاوب هنا، هو تجاوب من يريد أن ينجح في الامتحان، وليس تجاوب من يريد أن يكتسب شيئا ثمينا يحافظ عليه ويصونه، ويطوره باستمرار ليستثمره في حياته الخاصة والعامة. وبذلك يزيغ قطار تنمية الكفايات المستهدفة عن سكته.

ولا يختلف اثنان في حقيقة ثابتة، مفادها أن العلاقة بين طرفين لا يمكن أن تتفاعل وتحقق نتائج إيجابية تضمن لنفسها الاستمرار، إلا إذا كانت بعيدة كل البعد عن كل مظاهر التوتر. وبناء على هذا المعطى، فإن طبيعة العلاقة بين المدرس والمتعلم هي التي تتحكم بالدرجة الأولى وقبل أي مؤثر آخر، في كيفية تفاعل المتعلم مع الفضاء التربوي، ومن ثم في النتائج المحصل عليها. لاحظ أن استفسارات وحوارات التلاميذ في بداية السنة الدراسية، تكون متمركزة حول المدرسين الذين سيقضون معهم السنة الدراسية، وهو الهاجس الذي نرى صداه لدى الآباء والأمهات. وعلى هذا الأساس فإن العلاقة بين المدرس/ المربي والمتعلم، يجب أن تكون جامعة وبكيفية عملية، لكل المقومات التي تضمن تواصلا فعالا وإيجابيا، قوامه الأنس والانشراح، والمحبة والتودد والاحترام. ولا شك أن مسئولية زرع بذور هذه المقومات وتثبيتها ورعايتها، تلقى على عاتق المدرس بالدرجة الأولى.

وأحب كذلك أن أشير إلى عنصر أرى أن الاهتمام به مفيد للغاية، وهو القانون الداخلي للمؤسسة، الذي يلعب دورا فعالا في الحفاظ على السير العادي للدراسة، وهو مهم على مستوى صيانة مفهوم الأبوة التربوية، إذ يبدو أن الكثير من المشاكل التي تحدث بين الطاقم التربوي والتلاميذ، مردها إلى عدم اطلاع التلاميذ على القانون الداخلي للمؤسسة، أو إلى عدم تمثله بكيفية جيدة، أو إلى عدم أخذ ضوابطه مأخذ الجد. ولهذا وجب الاهتمام بهذا القانون والحرص على الالتزام ببنوده، إذ بالإضافة إلى كونه يساهم في الحفاظ على السير العادي للدراسة، ويضمن بقاء جسور التواصل بين الطاقم التربوي والمتعلمين، فإنه يعودهم على احترام القانون داخل المؤسسة وخارجها، وكلما تدرجوا في التعلم،إلا وتقوى هذا السلوك لديهم، فيتحول إلى مكون من مكونات شخصياتهم، وفي هذا صلاح لهم وللمجتمع وللوطن. فالثقافة الحقوقية التي يحكمها منطق الحق والواجب. تظل مقوما من مقومات شخصية الفرد.

وإذا كانت الأبوة التربوية تتجسد في طبيعة وكيفية التعامل مع المتعلم، صغيرا كان أم كبيرا، ذكرا كان أم أنثى، فإن ديننا الإسلامي الحنيف قد أولى المعاملة الحسنة أهمية كبرى، وأحاطها بسياج متين من التوجيهات والضوابط، التي تضمن لها الثبات والاستمرار، ومن هذه

التوجيهات التي نحن اليوم في أمس الحاجة إليها أكثر من أي وقت مضى، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».(7)

وفي صحيح مسلم من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلي الله عليه وسلم قَالَ لها: (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَي الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَي الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ ُ).(8)

وسيرته صلى الله عليه وسلم كلها صور ومشاهد، تجسد المعاملة الحسنة الطيبة، التي تراعي طبائع الناس وخصائصهم، وأحوالهم المادية والمعنوية، ومستوياتهم العمرية والعقلية، وعلاقة ذلك بالوسط الذي له دور فعال في توجيه سلوك الفرد. وفي كل المواقف جسد صلى الله عليه وسلم معاني الرحمة والرأفة والليونة في الإرشاد والتوجيه والتعليم، حتى في أشد المواقف حرجا، تأمل هذا المشهد الذي يشكل بحق نموذجا رفيعا للتربية السليمة: " حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - وهُوَ عَمُّ إِسْحَاقَ -، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ.(9)

إن ثقافتنا العربية الإسلامية، مليئة بالكثير من المواقف والمشاهد، التي تبين بوضوح أن معاني الأبوة كانت حاضرة بقوة، استنادا إلى اقتناع تام بأهمية استحضارها من طرف المربين في الكتاتيب وفي حلقات الدرس ... بغض النظر عن مستوى المتعلمين العمري والدراسي. وأول ما نشير إليه في هذا المجال عبارة " يا بني " التي نجدها حاضرة بكثافة في الخطاب التواصلي الذي يتم بين المربي والمتعلم، حيث تتصدر الكلام الموجه إلى المتعلم، وهي عبارة مليئة بكل معاني الحب والعطف والحنان والأمن، تتلقفها الأذن بلذة واطمئنان، ويهفو إليها الفؤاد وينشرح، احتراما وتقديرا لمعانيها التي تجعل المتعلم يستحضر عطر وسماحة ومسؤولية وصرامة الأبوة. ويكفي أن نلقي نظرة في كتب التراث، لنقف على الكثير من الحقائق والمشاهد، التي يمكن أن نستخلص منها العبر، ونستوحي منها ما يمكن أن ييسر ويسهل تحقيق الألفة والمحبة والتفاهم في الفضاء التربوي.ومن ذلك ما أورده أبو حيان التوحيدي في كتابه " البصائر والذخائر " حيث قال: " قال بعض مشايخ البصرة: أتيت أبا عبد الله بن عرفة أيام حداثتي وغرارتي لأثمر نفسي من فضله، وأحلي جوهري بأدبه، فلحظني متوهماً للنجابة، حاكماً علي بحسن الاستجابة، وقال

لي: يا بني هل لك حاد مستحث على طلب العلم؟ فقلت: نعم، فقال: قل نعِم، فإن النَّعَم الإبل والبقر، وأراد نشري وبسطي بهذا الرد، قال: أي أقوى في نفسك أن تعلم الحلال والحرام، أو أن تتعمق في الكلام، أو أن تواصل هذا الأدب والبيان؟ فقلت: بل مواصلة الأدب، فقال: ما اختال سحابك ولا خلب برقك "(10)

ومما يسير في هذا الاتجاه ما ورد في كتاب " منهاج المتعلم المنسوب للإمام الغزالي: " يجب أولا على المعلم إذا جيء به مبتدئا، أن يداعبه ويكرمه ويعززه إلى يوم كان مؤنسا معه، لأن المبتدئ كالطير الوحشي لا يأنس إلا بالتلطف فإن العلم أشق عليه وأمر، فيجب إصلاحه على ما يقتضيه طبعه " (11)

وجاء في كتاب إحياء علوم الدين في" بيان وظائف المرشد المعلم" ما يلي:" ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه

الوظيفة الأولى الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أنا لكم مثل الوالد لولده ".(12)

إن العمل بمقتضيات الأبوة التربوية يمكن أن يحقق النتائج التالية:

1 - تيسير اندماج المتعلم في الوسط بكل أنواعه، وجعله ينظر إلى الحياة بكل ثقة واطمئنان وتفاؤل، وإحساس بالجمال: جمال النفس الإنسانية، وجمال الحياة، وجمال الفعل الإنساني. وهذه المقومات مطلوبة على مستوى بناء شخصية متوازنة تستجيب بكيفية طبيعية ومتحمسة للأنشطة التي تؤدي إلى تحقيق الكفايات المنتظرة، وهذا يعني الوصول إلى الجودة المنشودة.

2 - الحد من ظاهرة الانقطاع الدراسي، وهي واحدة من المعضلات التي تؤرق الباحثين والمهتمين والمسئولين في المجال التربوي، باعتبارها ظاهرة غير صحية، تترتب عنها مشاكل تعوق تطور المجتمع وتحقيق التنمية، خاصة إذا لم تتم إعادة المنقطعين عن الدراسة إلى فضاء المؤسسة، لتدارك ما يمكن تداركه، أو العمل على إدماجهم في الحياة العملية، وفق صيغ تراعي خصوصياتهم ومؤهلاتهم، رغم ما يكلفه ذلك من جهد ومال، وفي ظروف تكون فيها معنويات المستهدفين أقل توقدا، وظروفهم أكثر تعقدا، لأن زمن الفعل يكون غير مطابق للعمر. والواقع أن هذا الوضع كان يمكن تفاديه بالوقاية من العوامل التي تسبب الانقطاع الدراسي. نقول هذا ونحن نستحضر الجهود التي تبذل من أجل احتواء الظاهرة، وذلك بالتحكم في أسبابها، هذه الأسباب التي يبدو أنها متعددة ومتشابكة ومتفاوتة من حيث قوة تأثيرها. ويبدو أن طبيعة التواصل مع المتعلم تشكل مفتاحا مهما لمعالجة الموضوع. ومن المفروض في هذا الباب أن تكون لدينا الجرأة الكافية، والصراحة المسئولة، والتواضع من أجل الوصول إلى جذور القضية،

ذلك أن نوع المعاملة التي يقابل بها المتعلم داخل المؤسسة، من طرف هيئة التدريس ورجال الإدارة لها وزنها في هذا الباب.

3 - القضاء على النزعة العدوانية، هذه الآفة الضارة بالفرد والمجتمع، وذلك باجتثاث مسبباتها، لأن الإنسان خير بطبعه، وهو مفطور على ذلك. ولا يختلف اثنان في أن البيئة التي يعيش فيها الفرد، تكون مسئولة إلى حد كبير في تكوين شخصيته. وأنت لا يمكنك أن تفسر أسباب حدوث سلوك معين، بمعزل عن المؤثرات التي تستجيب لها شخصيته، إن سلبا أو إيجابا. ومصادر هذه المؤثرات متعددة ومتنوعة، وهي متفاوتة من حيث قوة مفعولها. وتعتبر المؤسسات التعليمية من الفضاءات التي تتنامى وتتكاثر فيها هذه المؤثرات، التي من المفروض أن تكون كلها خيرة. ومن الواجب أن يكون هذا الفضاء في الآن نفسه قادرا على استئصال كل المظاهر الشريرة في سلوكيات المتعلمين. ومن بين هذه المظاهر، النزعة العدوانية، التي تتعدد وتتباين أسباب تسربها إلى الشخصية، فقد تكون ظروف حياة المتعلم داخل الأسرة هي المسئولة عن ذلك، وقد يكون مردها إلى طبيعة العلاقة بين المتعلم والمجتمع على اختلاف مستوياته.وهنا تبدو المدرسة فضاء مناسبا للقضاء على هذا الداء المدمر،الذي يتطلب معرفة مسبقة بطبيعة النزعة العدوانية وتجلياتها وأسبابها، وكيفية اجتثاثها من شخصية المتعلم، وذلك باستغلال المواقف التعلمية المناسبة، وخاصة تلك التي تسمح أنشطتها بإدراج مفاهيم التربية على القيم التي تصون للفرد كرامته وحقوقه، إذ هي التي تعتبر البديل المناسب الذي يقضي على النظرة السوداوية، وعلى مظاهر الحقد والكراهية، لأن تمثل هذه القيم والعمل بمقتضياتها، ينقل المتعلم إلى جادة الصواب وسلوك طريق الخير. وأخطر ما في الأمر أن تكون المدرسة هي نفسها مصدر هذه النزعة العدوانية. لاحظ مثلا أنه يمكن أن تحصل صراعات بين التلاميذ بعضهم مع بعض فتمتد إلى خارج أسوار المؤسسة. ويمكن أن يقع سوء تفاهم بين تلميذ أو مجموعات من التلاميذ ورجل إدارة أو مدرس ... والكثير من هذه الحالات يمكن احتواؤها باستحضار مقومات الأبوة التربوية.

4 - إن الكثير من المفاهيم التي أوكل أمر بلورتها وترسيخها وتثبيتها في سلوك المتعلم إلى الفضاء التربوي، مثل التربية على المواطنة، والتربية على حقوق الإنسان، وعلى مجموعة من القيم بصفة عامة، تجد في الأبوة التربوية السند القوي، والركيزة الصلبة التي تجعل المتعلم يتفاعل معها ويتمسك بها، ويدافع عنها في المواقف المناسبة. ويتأتى هذا عندما تتحول مثل هذه المفاهيم إلى ممارسات عملية، تتجسد في تعامل وتصرفات كل من له صلة بتربية المتعلم داخل المؤسسة، يشعر معها أنه بين طاقم مسؤول عنه، يرصد سلوكياته ويقوم ما اعوج منها بلطف ومرونة تماما كما هو عليه الأمر عندما يكون بين والديه.مما يؤدي إلى تفاعله مع هذه

المفاهيم عندما يثار الحديث عنها داخل الفصل، أو في مختلف الفضاءات التي يتردد عليها داخل المؤسسة، فيتأثر بها ويقتنع بأهميتها على مستوى بناء شخصيته، ومن ثم يعمل على التحلي بها في حياته العامة والخاصة، وبهذا تتقوى وتتوطد أركان التوازن والاستقامة، واحترام الآخر في كل تصرفاته، وفي هذا خدمة له ولأسرته وللمجتمع، ومن الله العون والتوفيق.

الهوامش

1. سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، 1995. عالم المعرفة، ص 28 .

2. محمد حسن العمايرة. 2010 م 1430 ه. المشكلات الصفية – السلوكية – التعليمية – الأكاديمية –. دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن الطبعة الثالثة ص 55.

3. عبد الكريم غريب. مستجدات التربية والتكوين، منشورات عالم التربية، مجلة جغرافية المغرب، ص 482.

4. ذكاء رواس قلعه جي. 1429هـ 2008-م.فن التواصل – تعالوا نتواصل. دار البيان، الكويت واليمامة، دمشق – بيروت. الطبعة الأولى، ص 117.

5. العربي اسليماني. 2005. التواصل التربوي مدخل لجودة التربية والتعليم. الطبعة الأولى مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 30 31-.

6. باربارا ماجيلكرست – كيت مايرز – جين ريد. ترجمة خالد العامري. المدرسة الذكية. لناشر، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش م م) القاهرة ص 149.

7. صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي – بيروت ج 4 ص 2003.

8. صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي – بيروت ج 4 ص 2003.

9. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي – بيروت ج1 ص 236.

10. أبو حيان التوحيدي. تحقيق: دة. وداد القاضي. 1408 هـ - 1988م. البصائر والذخائر، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ج 6 ص 250.

11. هشام نشابه. التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات. 1988. دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ص 74.

12. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. إحياء علوم الدين. دار المعرفة – بيروت، ج 1 ص 55.